د.امنون كابليوك *

اسرائيل وانتفاضة الأقصى

انتفاضة الاقصى حدث مهم وكبير في نضال الشعب الفلسطيني من اجل اقامة دولته المستقلة وعاصمتها القدس. احداثها تتلاحق، ولا يكاد يمر يوم من دون دموع ودم وضحايا، وليس هناك من يعرف كم من الوقت ستستمر. مع ذلك، يمكن ان نبدأ من الآن في استخلاص بعض العبر والدروس المرحلية، فيما يتعلق بالساحة الاسرائيلية.

قبل اي شيء، هناك حقيقة اساسية مهمة: الانتفاضة تدخل كل مساء الى كل بيت في اسرائيل بواسطة التلفزيون، الذي يقوم بنقل مشاهد الدم والدمار في الجانبين، مع ان تحليل الصور هو احادي الجانب بطبيعة الحال يكون فيه الفلسطيني هو المتهم وهو العدواني «الذي يفضل العنف على التفاوض» بينما نجد الاسرائيلي معتدى عليه على الدوام. وتظهر على الشاشة صورة وظروف وفاة كل قتيل اسرائيلي ويتردد اسمه مباشرة بعد مقتله وفيما بعد اثناء دفنه. وتكاد لا تكون هناك جنازة لقتيل انتفاضة اسرائيلي لا تعرض مقاطع منها في التلفزيون. وهناك، مقابل كل عشرة قتلى فلسطينيين قتيل اسرائيلي واحد لكن ذلك لا يحمل اي عزاء للاسرائيلي العادي. فالثمن المدفوع حتى الآن باهظ بنظره، ولا احد بمقدوره ان يرى الآن نهاية الطريق.

كذلك الامر بالنسبة للجرحى الذين لا ينساهم احد فهم يحظون مباشرة بعد اصابتهم بزيارات متلاحقة للكاميرات قرب أسرتهم في المستشفيات في ارجاء البلاد، ويتم عرض الصور باهتمام متزايد في قناتي التلفزيون الاسرائيلي، الاولى والثانية.

تضاف الى ذلك كله الاضرار الاقتصادية الضخمة التي مني بها الاقتصاد الاسرائيلي منذ اندلاع انتفاضة الاقصى. لقد تضررت كثيرا جيوب قسم كبير من الاسرائيليين. وتحطم فرع السياحة المزدهر تماما، سوية مع فروع اخرى متصلة به. والغى مستثمرون اجانب مخططات استثمارية، وتضررت الصادرات، وتجمدت فروع مهمة كالبناء، ونجم ذلك الى حد كبير عن النقص المتواصل في عشرات الآف العمال الفلسطينيين. كما تضررت الزراعة. وتم استدعاء افراد للخدمة الاحتياط في الجيش مجددا للخدمة في الحرب المتجددة ضد شبان يشكل الحجر سلاحهم الرئيسي. وشكا بعض هؤلاء الذين ادركوا منذ الانتفاضة الاولى التي شاركوا في قمعها، ان لا أمل لهم في تنفيذ مهمتهم الجديدة، إذ بانتظارهم هذه المرة، الى جانب الحجارة، كمائن خلايا فلسطينية تطلق النار على المستوطنات، ومعسكرات الجيش ووسائط النقل.

تصدر عن الشارع الاسرائيلي او في لقاءات عطلة آخر الاسبوع مساء أيام الجمعة اقوال من نوع: «هذه الانتفاضة تمسح لنا البسمة عن الوجوه». وبالفعل، فهي كالضربة من السماء وقعت دون انذار مسبق.

* كاتب وصحافي اسرائيلي

ومع ذلك، لو لم يستمد المواطن الاسرائيلي معلوماته من اعلام حكومته فقط، لكان وقع المفاجأة عليه اخف، ولعله كان سيتفهم ان الفلسطينيين ايضا ملوا اساليب المماطلة والتنكر للوعود وللاتفاقات المكتوبة من جانب اسرائيل في قضايا الانسحاب في الضفة الغربية واطلاق سراح الاسرى، على سبيل المثال. ما زال هناك ٢٣٠ اسيرا من «فتح» يقبعون في السجن الاسرائيلي، رغم انقضاء سبع سنوات على توقيع اتفاقية اوسلو. انهم هناك، كما تدعي اسرائيل، «لأن دما على ايديهم». قائدهم، ياسر عرفات، ارسلهم في مهماتهم، لكنه اصبح شريكا في صنع السلام، بينما على هؤلاء ان يتآكلوا في السجن الى ما لا نهاية. وفي هذا الموضوع فإن الاسرائيلي المتوسط يؤيد موقف حكومته، التي يقف على رأسها عسكري سابق،يداه ملطختان هو الاخر بدماء قادة فلسطينيين قتلوا في فراشهم (في عملية فردان في نيسان ١٩٧٣ في بيروت.) كما لا بد من الاشارة الى الحصار الذي يمس بصورة مؤلمة بالحياة اليومية للسكان الفلسطينيين ويدفعهم لليأس،والى البناء المكثف في المستوطنات، الذي يتم بكثافة أكبر بكثير مما كان في ايام نتنياهو، والى الاستخفاف واهانة وتكبر المحتل على من هم تحت نير احتلاله. وتبرر اغلبية الاسرائيليين الخطوات المتخذة ضد السكان الفلسطينيين باعتبارها «ضرورية» وحتى لو كانوا قد تنبهوا اصلا لما يجري لهؤلاء الفلسطينيين. كما انهم لم يتنبهوا كما يجب لما كان يلم بالفلسطينيين الى ان اندلعت انتفاضة الاقصى.

لو لم يبتلع الاسرائيلي بشهية دعاية حكومته، لفهم ان الاستفزاز في ثالث مكان مقدس للاسلام، الذي ترنو اليه عيون مليار مسلم، قادر على اشعال الحريق الكبير. لقد تمثل الاستفزاز الحقيقي بزيارة شارون للحرم الشريف واطلاق قوات الامن الاسرائيلية الرصاص الحي على الشبان، الذين احتجوا على الزيارة برشق الحجارة. لكن معظم الاسرائيليين الذين يعيشون بموجب دعاية باراك ومقاول اعماله بن عامي يعتقدون ان زيارة شارون لباحة الحرم هي امر في نطاق المتاح.

صحيح انهم لم يحضّروا شعب اسرائيل للسلام، لكن من سيقوم بتثقيفه الان؟ هل «الليكود» اليميني المتطرف، الذي قد يعتلي سدة الحكم بعد الانتخابات القادمة؟ ام لعله باراك، ذاك الذي دفع نحو الازمة الكبرى التي قادت الى الانتفاضة؟ ام قد يكون اليسار، الذي اختبأت غالبيته في الزاوية بينما كان يستتر خلف الشعار «صه، انهم يطلقون النار؟»

لا توجد حرب بلا دعاية. ويتضح لمن تفحّص الدعاية الاسرائيلية في الشهور التي سبقت انتفاضة الاقصى وخلالها انها فشلت على الصعيد العالمي في نهاية المطاف، بعد عدة نجاحات محصورة في بعض القضايا احرزتها قبل اندلاع الحريق. فالصور في التلفزيون اقوى من اية دعاية. هكذا كان الوضع خلال حرب فيتنام، وهكذا كان في لبنان وهكذا حدث خلال انتفاضة الاقصى. وتحولت صورة الطفل محمد الدرة من البريج، الذي قتل بين يدي والده، الى احدى الصور الفظيعة في عصرنا، وهي ابلغ من الكلمات كلها معا حتى انها اثارت الخجل لدى اصحاب الضمير في اسرائيل ذاتها. لكن الرد الاسرائيلي الرسمي كان متميزا: تشكلت لجنة تحقيق عسكرية قررت «بالطبع» ان الفلسطينيين هم الذين قتلوا محمد الدرة. وهذا ما اعلنه قائد المنطقة الجنوبية، الجنرال يوم طوف ساميه، في مؤتمر صحفي يوم ٢٠٠٠/١١/٢٧، أي بعد القتل بشهرين تقريبا. لكنه نسي ان يفسر اسباب قيام الجيش الاسرائيلي بهدم الجدار الذي احتمى به الولد وابوه، ذلك الجدار الذي تلقى الرصاص؛ وهو الجدار الذي كانت له أهمية كبرى في كل تحقيق. الا ان الجيش عاد واعترف في مرحلة متأخرة ان الجدار هُدم «بالخطأ».

من المهم ان نتذكر ان اسرائيل في فترة نتنياهو كانت معزولة في العالم وهو الامر الذي فرض الى حد كبير قيودا عليه. مقابل ذلك فإن باراك تمتع منذ صعوده للسلطة بتأييد كبير في الغرب. بل انه جرؤ على تجديد الاعمال التي جمدها نتنياهو في جبل ابو غنيم. بعد اندلاع الانتفاضة واصل قادة الغرب دعمهم لباراك علانية، بدعوى «التصدي» لشارون. لكن الرأي العام العالمي من الناحية الاخرى ادار ظهره بغالبيته لاسرائيل. ثم قررت الحكومة نشر «كتاب ابيض» يتضمن اتهامات للسلطة الفلسطينية، بهدف تحسين صورة اسرائيل. طبع الكراس الصغير، لكن سرعان ما قررت وزارة الخارجية وقف توزيعه للسبب التالي: «لم ينجح نتنياهو بتسويق مادة كهذه، كذلك نحن لن ننجح....»

فيما يتعلق بالساحة الاسرائيلية، فإن نجاح دعاية باراك ضد الفلسطينيين جاء تاما كما اسلفنا. فاليهودي الاسرائيلي يشتري بضاعة اهود باراك دون مشاكل، ويتفق معه على ان الفلسطينيين مسؤولون عن فشل العملية السياسية ويقبل الجزم بأن العنف كله ثمرة تخطيط فلسطيني. وتكرر الغالبية العظمى من الاسرائيليين كالببغاوات دعاية باراك ومساعده المطيع بن عامي، والتي عرض باراك بموجبها في كامب ديفيد مقترحات بعيدة المدى للغاية. ويدرك كل من عرف ما جرى في كامب ديفيد ان باراك، المستعد لبذل كل شيء للتهرب من استحقاقات اوسلو، تجاوز، في الفترة التي سبقت القمة، وبالتنسيق التام مع كلينتون، الانسحاب الاسرائيلي الثالث، الكبير، لكي ينتقل الى محادثات حول التسوية الدائمة. في كامب ديفيد اكتشف ياسر عرفات ان الامر لا يعدو كونه املاء اسرائيليا لا يتضمن حتى الحد الادنى من مطالب الشعب الفلسطيني، المستندة الى الشرعية الدولية. كان المقصود دويلة مشوهة، لها مظاهر استقلال متعددة ولكن تحت المظلة الاسرائيلية، حتى من دون سيادة على الاقصى، وكل ذلك مقابل « انهاء الصراع». تواصلت الضغوط على القيادة

الفلسطينية وتعاظمت من جانب باراك بعد القمة، بمساعدة ممن كان مفروضا ان يكونوا وسطاء امينين – أي الاميركان... وصرخ الاسرائيليون عبر كل وسيلة اعلام: «عرفات ملزم باظهار ليونة وعليه العودة الى تفاهمات كامب ديفيد». لكن تفاهمات كامب ديفيد اختراع اسرائيلي، اوجده باراك بالتعاون مع خادمه الامين، السيد شلومو بن عامي. عندما لم يخضع عرفات للإملاء رفعوا في وجهه تحذيرا بموجبه انه لم يعد شريكا في المفاوضات مع اسرائيل. كان ذلك صلفا منفرا، إذ متى كان طرف ما يملك تعيين ممثلي الطرف الثاني؟ مع ذلك، لم يصدر في اسرائيل اي احتجاج تقريبا على هذه الوقاحة.

يجدر بنا للغاية ان نقرأ في هذا السياق كلمات المراسل السياسي المطلع في «هارتس» يوم ٢٠٠٠/١٢/١٠، الوف بن الذي كتب يقول: «ما زال تصرف باراك حتى اليوم مثيرا للشك فيما اذا كان فعلا يعتزم التوصل لاتفاقات مع سورية والفلسطينيين، ام انه حاول فقط تجنيد دعم دولي لمواقفه واظهار العرب بدور الرافضين؟ نجح ذلك مع السوريين، لكن ياسر عرفات تكشف عن خصم اكثر تشددا. إذ فقد صبره على احابيل باراك السياسية وتحول لاحراز غاياته بالقوة». وقدم له باراك بنفسه الذريعة لذلك، عندما سمح بالزيارة الاستفزازية لارئيل شارون في الحرم الشريف«.

وهناك من بين صفوف العسكريين السابقين في الجيش الاسرائيلي من استخلصوا العبر وتوصلوا الى نتيجة مفادها ان الفلسطينيين يرغبون بتحقيق مطالبهم واذا لم يكن ذلك حول مائدة المفاوضات فمن خلال استخدام القوة، لأن اسرائيل مثل اي واحد اخر تفهم هي الاخرى لغة القوة. يقول عمرام متسناع، رئيس بلدية حيفا وقائد المنطقة الوسطى في عهد الانتفاضة (١٩٨٧ – ١٩٩٣) : «دون تلك الانتفاضة لما كنا نجلس مع الفلسطينيين على طاولة التفاوض. نحن نتخذ القرارات فقط عندما يكون السكين مسلطا على اعناقنا، وفقط بعد ان تصل الامور حد الصدام والانفجار». ويعبر رئيس جهاز «الشاباك» السابق عامي ايالون عن الاعتقاد بأن الفلسطينيين اختاروا استراتيجية التفاوض والحوار لكنهم عندما رأوا ان الحل الوسط الذي تعرضه اسرائيل ليس محترما قرروا اللجوء لخيار استخدام القوة.

كان من الطبيعي اتساع الكراهية للفلسطينيين ولسلوكهم في الشارع اليهودي بشكل لم يكن له مثيل منذ سنوات وسط اجواء متعكرة كهذه التي تسوده بسبب انتفاضة الاقصى، في وقت كان فيه قادة اسرائيل مشغولين بنفي الشرعية عن السلطة الفلسطينية «التي تكشفت انها مخربة للسلام». وكم كانت محزنة رؤية رأي عام كهذا يقبل بأي ادعاء للسلطة بدون تفكير. حتى فيما يخص محمد الدرة.

عندما سيعود الهدوء في نهاية الامر، ستكون هناك حاجة لجهود اصلاحية جبارة للتغلب على موجة الكراهية التي تغمر اسرائيل. وستنشأ الحاجة ايضا للتفرغ من أجل تثقيف الاسرائيليين على علاقات حسن الجوار مع ابناء الشعب المجاور. وحقا، فالتربية على قيم السلام، هي ما يحتاجه الاسرائيليون اكثر من اي شيء اخر لكنهم لم يحصلوا عليها، لا قبل اتفاقات اوسلو ولا بعدها ايضا، سوى لفترة قصيرة في عهد رابين. كانت المظاهرة المذهلة الكبرى الاولى من اجل السلام التي جرت في ١٩٩٥/١١/٤ في تل ابيب هي الاخيرة ايضا؛ وفي ختامها تم اغتيال رابين.

صحيح انهم لم يحضّروا شعب اسرائيل للسلام، لكن من سيقوم بتثقيفه الان؟ هل «الليكود» اليميني المتطرف، الذي قد يعتلي سدة الحكم بعد الانتخابات القادمة؟ ام لعله باراك، ذاك الذي دفع نحو الازمة الكبرى التي قادت الى الانتفاضة؟ ام قد يكون اليسار، الذي اختبأت غالبيته في الزاوية بينما كان يستتر خلف الشعار «صه، انهم يطلقون النار؟» لقد اجاد المؤرخ الفرنسي المعروف والشجاع، بيير فيدال ناكيه، ذاك اليهودي المدافع لسنين طويلة عن حقوق الفلسطينيين والذي كان اول من نادى في فرنسا، وربما في اوروبا كلها، باقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة، اسبوعا واحدا بعد حرب ١٩٦٧، اجاد في وصف صمت اليسار الاسرائيلي ازاء اعمال حكومة باراك الفظيعة خلال الانتفاضة، بأنه «لا يطاق وبائس». وبحق طرح الفلسطينيون ايضا، والرجل في الشارع والقيادة على السواء، بعد اندلاع انتفاضة الاقصى، السؤال الحرج التالي: اين اليسار الاسرائيلي؟ وكيف يسمح اليسار لحكومة باراك بحصد الفلسطينيين بهذا الشكل، وفرض العقوبات الجماعية،

وقصف مناطق السلطة الفلسطينية؟

هذا سؤال في محله. لكن يجدر بنا اولا ان نوضح ان مصطلح «يسار» ليس دقيقا، في مثل حالتنا. فاليسار في العالم هو تيار سياسي ذو ايديولوجيا تسعى للمساواة الاجتماعية والنظام الاشتراكي - الديمقراطي او الاشتراكي ويشتمل كذلك على مفاهيم سياسية سلمية. اما في اسرائيل، التي تعد «الاشتراكية» فيها كلمة مشينة تقريبا، وتم فيها شطب الاول من ايار عن جدول الاعمال، تقلص مصطلح اليسار ليقتصر فقط على ذوي المواقف المعتدلة في الصراع العربي-الاسرائيلي، اي - على انصار السلام. ويُحسب عليه ايضا محافظون بارزون لو كانوا في بلدان اخرى لوجدوا انفسهم في اليمين. منذ اندلاع انتفاضة الاقصى، برزت في اوساط هذا اليسار الاسرائيلي ظاهرة مخيبة للآمال. حتى قبل ان تنطلق النار، صدرت عن غالبية رجالات هذا اليسار، باستثناء مجموعات صغيرة فيها، لا تأثير لها، لكنها شجاعة، نداءات للطرفين بإبداء المرونة. وبذلك انجرفوا وراء دعاية باراك وبن عامي التي دعت ياسر عرفات الى ابداء «المزيد من المرونة».

نسي هؤلاء ان التسوية الكبرى، التاريخية، المؤلمة، قام بها الفلسطينيون منذ ١٩٩٣ بتوقيعهم على اتفاقات اوسلو، عندما وافقوا، في سبيل السلام، على الاكتفاء بعشرين بالمائة من مساحة فلسطين. لقد فتح توقيع القائد الفلسطيني ياسر عرفات ابواب العالم العربي امام اسرائيل، لكن اسرائيل طمعت حتى بالقليل مما وعدت به الفلسطينيين، الذين كانوا اصحاب البلاد قبل جيلين فقط، وطالبت الفلسطينيين بحلول وسط اخرى ومزيد من المرونة والتنازل. هنا لا تكون موافقة الفلسطينيين على حل وسط مؤلمة ابدا برأي الاسرائيليين لانه «واجب ملقى عليهم من اجل السلام»... فالتسوية، كما يراها الاسرائيليون، مؤلمة لهم فقط...

عند الحديث عن نفس اليسار يجب الا ننسى انه بغالبيته مؤيد لحزب العمل لذلك فهو لن يتظاهر ضده عندما يكون في السلطة. هذا هو سبب الموقف المائع لحركة مهمة مثل «السلام الآن» فيما يخص ممارسات اسرائيل منذ اندلاع الانتفاضة الجديدة. لو كان الليكود في السلطة وقام بذات الممارسات العدوانية ضد المواطنين الفلسطينيين، من خلال استخدام مفرط للقوة وفرض العقوبات الجماعية، كما فعلت حكومة باراك، كنا سنشاهد مظاهرات الاحتجاج وقد اجتاحت اسرائيل.

وتدل استطلاعات الرأي العام على ان حوالي ٦٠٪ من الاسرائيليين يرغبون بمواصلة عملية السلام مع الفلسطينيين. هذه نسبة لا يستهان بها ولا شك، لكن عند الدخول في التفاصيل يتبين ان السلام المقبول على الاسرائيلي المتوسط يختلف عن السلام المقبول لدى الفلسطيني. وسلام يتضمن عودة الى حدود ١٩٦٧ يحظى بحوالي ٢٥٪ في اوساط الاسرائيليين ولا يوافق سوى ١٠٪ على نقل القدس الشرقية لسيادة فلسطينية. على كل حال فقد تدنى عدد انصار السلام في فترة الانتفاضة.

ذكرنا الكراهية التي تغمر اسرائيل تجاه الطرف الثاني، لكن هناك ظاهرة اخرى، لم نعرفها في فترة الانتفاضة الاولى وهي موجودة الان ويحس بها الكثيرون: الخوف. فالمجمعات التجارية الكبرى قلت فيها حركة الناس، ليس نتيجة الازمة الاقتصادية بل جراء الخوف من عملية تفجير فلسطينية. وهناك عدة طرق خارجية بين المدن يمتنع بعض الاسرائيليين عن السفر فيها، اذا لم يكن ذلك ضروريا لهم. والحركة خفيفة حتى في ساعات الذروة في اماكن عادة تكون مكتظة بالمارة المتسوقين مثل شارع بن يهودا في مركز مدينة القدس وفي سوق محنيه يهودا. واذا حدث والتقى الاصدقاء بعضهم بعضا يتساءلون:«ماذا بعد؟»

اما اليمين الذي كان يحتضر غداة انتخابات ايار ١٩٩٩ فقد استغل موجة الكراهية والشعور بالخوف لدى الاسرائيليين. كما احيت اخطاء ايهود باراك، في كل ما يتعلق اولا وقبل كل شيء بعملية السلام مع الفلسطينيين ، اليمين الاسرائيلي، الذي كانت غايته هدم هذه العملية. عادت الروح الى الليكود فهب للعمل، بقدر ما تزايدت بالمقابل اخطاء باراك. وفجأة كالكابوس، بدأ ظل بنيامين نتنياهو بالظهور ودلت استطلاعات الرأي العام على العودة المذهلة الى مركز الحلبة السياسية التي مني فيها بهزيمة منكرة فقط قبل عام ونصف. كانت انتفاضة الاقصى، التي جاءت وكأنها نتيجة لسياسة باراك، فرصة ممتازة لغوغائيي اليمين لنشر الكراهية تجاه الفلسطينيين والاستفادة من الخوف الكبير لدى المواطنين نتيجة المجابهة العنيفة المتواصلة بلا انقطاع منذ اواخر ايلول ٢٠٠٠.

اثار اليمين المتطرف شعارا غوغائيا- فاشيا يقوم بإسماعه بلا انقطاع في مظاهراته: «دعوا جيش الدفاع ينتصر». هذا شعار وحشي، من مدرسة شارون، يعني القضاء على الطرف الثاني: احتلال مناطق تقع تحت سيطرة السلطة الفلسطينية، تحطيم السلطة او اخضاعها واذا امكن تنفيذ اعمال طرد الى ما وراء الحدود. ويهدد الصحافي اوري دان،

اصبح المستوطنون، الذين يراهم قسم ليس قليلا من الرأي العام الاسرائيلي، عقبة حقيقية في الطريق الى السلام، عنصرا مقيتا مع السنين. في استطلاع للرأي العام جرى قبل انتفاضة الاقصى بين طلاب المدارس الثانوية احتل المستوطنون رأس قائمة العناصر المقوتة في المجتمع الاسرائيلي (٥١٪) . حربهم اليوم باتت حرب بقاء ومن هنا جاء شعارهم المغثي »دعوا جيش الدفاع ينتصر«.

المعبر عن ارئيل شارون بصورة دقيقة، في «معريف» في اقواله عن الانتفاضة، بأن «نكبة ثانية قادمة في الطريق».

اما بالنسبة لباراك، بالمقابل، فإن استخدام القوة جاء لتحقيق اهداف سياسية مثل فرض اتفاق. يؤيد باراك اسلوب كارل فون كلاوزفيتس العسكري البروسي الشهير والمفكر المعروف في القضايا الاستراتيجية، الذي عاش قبل ثلاثمائة عام. بحث هذا العسكري البروسي في كيفية تقويض قوة وارادة العدو وفرض الاستسلام عليه وقرر ان «الحرب في كافة اشكالها ليست سوى استمرارا للسياسة بوسائل اخرى». لقد شهد الماضي معارك صعبة مع الفلسطينيين، مثل حرب لبنان، والقصف الواسع بعد عمليات الفدائيين، وكذلك الانتفاضة الاولى، بحيث كان الهدف دوما القمع والاحتلال والهدم والطرد. اما هذه المرة، فإن هدف استخدام القوة بهذه الكثافة والحجم، هو جر الطرف الثاني الى طاولة المفاوضات وفرض التسوية عليه.

المشكلة مع اصحاب تصورات كهذه هي عدم فهمهم حدود القوة في مثل حالتنا. كلما لجأوا اليها اكثر كلما ادت في نهاية المطاف الى نتيجة واحدة هي ان السلاح المتطور واعمال القصف ليست مفتاحا للحل السياسي. لكن اهود باراك يعتقد بغير ذلك والدليل هو الاستخدام المفرط للسلاح والقتل المتزايد في الطرف الفلسطيني.

الشعار «دعوا جيش الدفاع ينتصر» كما يكتب يوئيل ماركوس في »هارتس« هو »مستهتر وكاذب من اساسه. وعلى أي حكومة مسؤولة، وجيش خاضع لها، التركيز على مهمة تقسيم البلاد مع الحد الاقصى من الامن والجيرة الحسنة مع الدولة الفلسطينية، التي لا يستطيع احد منع قيامها. جيش الدفاع ليس ملزما وهو لا يستطيع ايضا التوصل الى الحسم، لانه لا يمكن الانتصار على شعب باكمله. كان قصف غزة من الجو خطأ كبيرا. وكان اسوأ من القتل، لأنه اهان القيادة التي نتحدث معها ومست بنا تماما كارتداد الكيد الى نحره .... او بمنطق على الباغي تدور الدوائر. وفي الوضع الحالي هناك حل واحد فقط يمكن اجماله بشعار من ثلاث كلمات: دعوا العقل ينتصر... اما اذا هاجمنا بكل القوة، فاننا سنكون في نظر الرأي العام العالمي كمن يشن حرب ابادة للشعوب«.

كان المستوطنون اول من طرح الشعار الهمجي »دعوا جيش الدفاع ينتصر« . فهم يحسون ان وقتهم انقضى. وبداية فان المستوطنات الاستفزازية، المغروزة في جسد الفلسطينيين في الضفة والقطاع هي كما اسماها رابين »مستوطنات سياسية« . وحقيقة ان المستوطنات، سوية مع معسكرات الجيش في المناطق المحتلة، تعد هدفا اساسيا ومركزيا للانتفاضة وتشكل رسالة واضحة لا يمكن لاحد ان يخطىء بالنسبة لها. هذا بالطبع هو السبب الذي يدفع المستوطنين لبذل كل ما بوسعهم لقمع الانتفاضة الشعبية. واضح لهم انه عند عودة الطرفين للمفاوضات سيثار مطلب تفكيك المستوطنات بكل قوة.

من المهم ان نقرأ تحليل المحلل العسكري المقرب من المؤسسة زئيف شيف في « »هارتس» لاسباب انهيار اوسلو: «الاميركان مذنبون بانهم لم يحرصوا على منع خروقات الطرفين للاتفاق. وما هي هذه الخروقات؟ لم يجمع الفلسطينيون السلاح غير القانوني وزادوا عدد افراد قوات الشرطة لديهم.. اما خروقات الاسرائيليين فتخص بالمقابل جذور الاتفاقية وجوهرها. عطلوا مرة تلو الاخرى انسحابهم من الضفة الغربية ولا يقل عن ذلك اهمية استمرار توسيعهم للمستوطنات واقامة اخرى جديدة ومصادرة الاراضي لهذه الغاية. كما لعبت المستوطنات ايضا دورا في اندلاع الانتفاضة الشعبية الفلسطينية.

اصبح المستوطنون، الذين يراهم قسم ليس قليلا من الرأي العام الاسرائيلي، عقبة حقيقية في الطريق الى السلام، وعنصرا مقيتا مع السنين. في استطلاع للرأي العام جرى قبل انتفاضة الاقصى بين طلاب المدارس الثانوية احتل المستوطنون رأس قائمة العناصر المقوتة في المجتمع الاسرائيلي (٥١٪) . حربهم اليوم باتت حرب بقاء ومن هنا جاء شعارهم المغثي «دعوا جيش الدفاع ينتصر». يعتبر اهود باراك من انصار المستوطنين والجميع يذكر انه صرح علانية بأنه يحس بالقرب من اسحاق

ليفي، رئيس الحزب الديني القومي، حزب المستوطنين اليميني المتطرف، اكثر من قربه لزعيم «ميرتس» اليساري يوسي سريد. مع ذلك فرح المستوطنون باستقالة باراك واعلنوا تأييدهم لمرشح اليمين.

يشن المستوطنون حملة ضد ما يسمونه «سياسة ضبط النفس لدى الحكومة». ويدور الحديث عن «ضبط نفس» يكلف مئات القتلى، والاف الجرحى، وهدم مئات البيوت، واقتلاع المئات من اشجار الزيتون، واغلاق المدن والقرى في الضفة الغربية، الامر الذي يسبب نقصا خطيرا في الاحتياجات الحيوية، والقائمة طويلة. بعد ذلك كله وبعد مرور شهرين على الانتفاضة تظهر على شاشة التلفزيون مستوطنة تتحدث بنبرة غاضبة عن «ضبط النفس لدى اسرائيل» وتقول: «لا يجوز ان يقوم الفلسطينيون بقتلنا كل الوقت، بينما لا تسقط من رأسهم شعرة واحدة». وقد وجهت محررة استطلاعات الرأي العام في القناة الثانية للتلفزيون الاسرائيلي سؤالا عما اذا كانت هناك حاجة لمواصلة سياسة ضبط النفس. من المهم ان نعرف كم من المجيبين ردوا بالسؤال: عن اي ضبط نفس تتحدثين يا سيدتي؟

ولم نتحدث بعد عن الجنود الذين يتم ارسالهم الى المستوطنات المغروزة في قلب التجمعات السكانية الفلسطينية، للمحافظة على سلامة المستوطنين من خلال تعريض حياتهم أي الجنود للخطر. وكان هناك جنود لم يخشوا القول انهم لا يريدون الخدمة في هذه الاماكن وكان بينهم من رفض الخدمة فزج بهم في السجون.

توجد لدى المستوطنين ميليشيات مسلحة تعيث فسادا في المنطقة. وهناك المزيد من الدوريات المشتركة بين الجيش والمستوطنين «الذين يفرضون النظام» في المنطقة المحتلة. لو حظي المستوطنون بيد طليقة، لكانت حمامات الدم قد غمرت المنطقة وهناك في بعض وسائل الاعلام اصداء لممارسات المستوطنين بين الفينة والاخرى، لكن سرعان ما ينبري مؤيدوهم للتعبير عن تضامنهم معهم.

هاكم مثلا: الكاتب اهرون ميغد، عضو الجناح اليميني في حزب العمل، يهب للدفاع عن المستوطنين في مقاله «كبش الفداء» في «ديعوت احرونوت» يوم ٢٠٠٠/١٢/٧ وفيه يكتب: «كلما اصبحت الانتفاضة عدوانية اكثر، وقاتلة اكثر، يلتهب العداء في الاعلام الاسرائيلي تجاه المستوطنين. ويصل عدد المقالات الغاضبة ضدهم في الصحافة في الشهرين الاخيرين الى العشرات بالتأكيد. عندما ارى كيف تضاف اسبوعيا اسماء كتاب وناطقين جدد يصبون جام غضبهم عليهم، بينهم ادباء، فنانون، ممثلون ومرفهون، اتساءل: هل هناك قيادة خفية تقوم بتجنيد كل هؤلاء وتوجيههم نحو نفس الهدف؟ اذا لم يكن كذلك، كيف يحدث ان كل هؤلاء الشاتمين يبرزون من تحت الارض، بعد ان كانوا حتى الان منشغلين بقضايا اخرى؟ ... وكأن الحقيقة اشرقت فجأة على كثيرين، كالشمس في عز الظهيرة وبات المستوطنون هم المذنب في هذه المصيبة الفظيعة التي حلت بنا، اي الانتفاضة!».

يقول الاسرائيليون بعضهم لبعض ان ما يحدث هنا امر محزن. واحيانا يضيفون انهم لا يرغبون حتى في الاستماع الى نشرات الاخبار. «روح شريرة تحلق فوقنا» ويتنصل الكثيرون من النقد بينما هناك قلة تجرؤ على توجيه النقد ولكننا بالكاد نسمع صوتها على مدار العام. اما الان فهم يقولون ان السكوت ممنوع . هكذا كان حال شخص شغل منصبا رفيعا جدا، وعمل مستشارا قضائيا للحكومة بين السنوات ١٩٩٣ – ١٩٩٦، ميخائيل بن يئير. مقالته المنشورة في «هارتس» يوم ٢٧/ ٢٠٠٠/١١ والتي نقتبس منها مقاطع قصيرة هنا، يجب ان تشكل مادة للقراءة في المدارس كما لا يضير باراك وبن عامي قراءة هذه المقالة. يقول بن يائير:

«مع السنين بدأت تخفق في وسطنا ارواح عبث مسيحانية، اعتمدت على حراب جيش الدفاع، واصبحنا مجتمعا كولونياليا متحمسا للاحتفاظ بالمناطق المحتلة، وتجاهلنا المواثيق الدولية، وصادرنا اراضي ليست لنا، ونقلنا مستوطنين يهودا من اسرائيل للمناطق المحتلة، وعملنا في النهب واوجدنا لذلك كله تبريرات قانونية.

«ان للنضال الفلسطيني الحالي مبررات اخلاقية طالما ان قوات احتلالنا، ومواطنينا وعساكرنا موجودون على ارضهم. من هنا فإن النضال الحالي(اي الانتفاضة) لا يناقض اعلان الفلسطينيين عن نواياهم بالسلام.

«الشعب الفلسطيني جدير بدولة مستقلة ستقوم ان عاجلا ام اجلا، لكن لا يجب ان نتوقع انه سيسلم بدولة ليس فقط تفتقد تواصلا جغرافيا بين الضفة الغربية وقطاع غزة ، بل تكون محاطة بمستوطنات يهودية ومناطق عسكرية غريبة مغروزة كالاشواك في داخلها.

«مهما كانت قوتنا العسكرية كبيرة، فانها لن تصمد امام حرب التحرير الوطني الفلسطيني. مثل اي حرب تحرير عصرية، لا بد ان تنتهي بانتصار الفلسطينيين، والسؤال الوحيد هو سؤال الوقت والدم. لذلك لا فائدة في اصرارنا على وجود المستوطنات، التي هي غير قانونية وتعرقل التوصل الى اتفاق سلام».

لقد جاء هذا الكلام الوارد في مقالة المستشار القانوني السابق للحكومة الاسرائيلية نتيجة طبيعية لتداعيات انتفاضة الاقصى وقراءة صحيحة للأحداث الساخنة التي تشهدها المنطقة.